

آثار الذنوب على الأفراد

والشعوب

عبد الهادي بن حسن وهبي

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ

وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ

أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ

يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّ

فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا

اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ

مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ،

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ الْأُمُورِ

مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلَّ

بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي

النَّارِ.

وَبَعْدُ: «اقْشَعَرَّتِ الْأَرْضُ وَأَظْلَمَتِ

السَّمَاءُ، وَظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ مِنْ ظُلْمِ الْفَجْرَةِ، وَذَهَبَتِ

الْبَرَكَاتُ، وَقَلَّتِ الْخَيْرَاتُ،

وَتَكَدَّرَتِ الْحَيَاةُ مِنْ فِسْقِ الظُّلْمَةِ،

وَبَكَى ضَوْءُ النَّهَارِ وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ مِنْ

الْأَعْمَالِ الْخَبِيثَةِ وَالْأَفْعَالِ الْفَظِيحَةِ،

وَشَكَا الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ إِلَى رَبِّهِمْ

الْمُنْكَرَاتِ وَالْقَبَائِحِ! قَسَتْ الْقُلُوبُ
وَكَثُرَتِ الذُّنُوبُ وَانصَرَفَ الْخَلْقُ
عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، فَعَظُمَ بِذَلِكَ
الْمُصَابُ وَاسْتَحْكَمَ الدَّاءُ وَعَزَّ
الدَّوَاءُ. وَهَذَا - وَاللَّهِ - مُنْذِرٌ
بِسَبِيلِ عَذَابٍ قَدْ انْعَقَدَ غَمَامُهُ،
وَمُؤَذِّنٌ بِبَلِيلِ بَلَاءٍ قَدْ ادْلَهَمَّ
ظَلَامُهُ» (1) بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
الْعِبَادِ.

(1) ... «الفوائد» (ص 88 -

المؤيد - الرياض].

«إِنَّ الْمَعَاصِي تُخَرِّبُ الدِّيَارَ
الْعَامِرَةَ، وَتَسْلُبُ النِّعَمَ الْبَاطِنَةَ
وَالظَّاهِرَةَ. فَكَمْ لَهَا مِنَ الْعُقُوبَاتِ
وَالْعَوَاقِبِ الْوَحِيمَةِ؟! وَكَمْ لَهَا مِنَ
الآثَارِ وَالْأَوْصَافِ الذَّمِيمَةِ؟! وَكَمْ
أَزَالَتْ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَحَلَّتْ مِنْ مِحْنَةٍ
وَنِقْمَةٍ?!» (1).

وَهَلْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ شَرٌّ وَدَاءٌ

إِلَّا وَسَبَبُهُ ارْتِكَابُ الْقَبَائِحِ

وَالْمُوبِقَاتِ، وَاجْتِرَاحُ الْمَعَاصِي

وَالسَّيِّئَاتِ؟ فَالذُّنُوبُ هِيَ أَسَاسُ

«فَمَا الَّذِي أَخْرَجَ الْأَبْوِينَ مِنْ
الْجَنَّةِ، دَارِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ وَالْبَهْجَةِ
وَالسُّرُورِ، إِلَى دَارِ الْآلَامِ وَالْأَحْزَانِ
وَالْمَصَائِبِ؟

وَمَا الَّذِي أَخْرَجَ إِبْلِيسَ مِنْ
مَلَكَوتِ السَّمَاءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ
وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ فَجَعَلَ صُورَتَهُ
أَقْبَحَ صُورَةٍ وَأَشْنَعَهَا، وَبَاطِنَهُ أَقْبَحَ
مِنْ صُورَتِهِ وَأَشْنَعَ، وَبَدَّلَ بِالقُرْبِ
بُعْدًا، وَبِالرَّحْمَةِ لَعْنَةً، وَبِالْجَمَالِ
قُبْحًا، وَبِالْجَنَّةِ نَارًا تَلْظِي،
وَبِالإِيمَانِ كُفْرًا؟

حَتَّىٰ عَلَا الْمَاءُ فَوْقَ رُؤُوسِ

الْجِبَالِ؟

وَمَا الَّذِي سَلَّطَ الرِّيحَ عَلَىٰ قَوْمِ

عَادٍ حَتَّىٰ أَلْقَتْهُم مَّوْتَىٰ عَلَىٰ وَجْهِ

الْأَرْضِ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ،

وَدَمَّرَتْ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ مِنْ دِيَارِهِمْ

وَحُرُوثِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ وَدَوَابَّهُمْ حَتَّىٰ

صَارُوا عِبْرَةً لِلْأُمَّمِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَىٰ قَوْمِ ثَمُودَ

الصَّيْحَةَ حَتَّىٰ قُطِّعَتْ قُلُوبُهُمْ فِي

أَجْوَافِهِمْ وَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟

(118/6)، للعلامة السعدي

رحمه الله.

وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَى اللُّوطِيَّةِ حَتَّى

سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِمْ، ثُمَّ

قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهَا

سَافِلَهَا، فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعًا، ثُمَّ

أَتَبَعَهُمْ حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَمْطَرَهَا

عَلَيْهِمْ، فَجَمَعَ عَلَيْهِمْ مِّنَ

العُقُوبَاتِ مَا لَمْ يَجْمَعُهُ عَلَى أُمَّةٍ

غَيْرِهِمْ، وَإِلَّاخْوَانِهِمْ أَمْثَالُهَا، وَمَا هِيَ

مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ؟

وَمَا الَّذِي أَرْسَلَ عَلَى قَوْمِ شُعَيْبٍ

صَارَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ أَمْطَرٌ عَلَيْهِمْ
نَارًا تَلْظِي؟

وَمَا الَّذِي أَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ فِي
الْبَحْرِ ثُمَّ نَقَلْتَ أَرْوَاحَهُمْ إِلَى
جَهَنَّمَ، وَالْأَجْسَادُ لِلْغَرَقِ، وَالْأَرْوَاحُ
لِلْحَرَقِ؟

وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُونَ وَدَارِهِ
وَمَالِهِ وَأَهْلِهِ؟

وَمَا الَّذِي أَهْلَكَ الْقُرُونَ مِنْ بَعْدِ
نُوحٍ بِأَنْوَاعِ الْعُقُوبَاتِ وَدَمَّرَهَا
تَدْمِيرًا؟» (1).

سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ. غَرَقٌ وَحَرِيقٌ

عليه إلا جعلته كالرميم؟

[الذاريات: 24]. وَصِيحَةٌ وَاحِدَةٌ

تَجْعَلُ الْعُصَاةَ كَالهَشِيمِ. وَخَسْفٌ

مُرْوَعٌ يَجْعَلُ عَالِي الْأَرْضِ سَافِلَهَا.

وَمَطْرٌ بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ.

وَسَحَابٌ يُمَطِّرُ نَارًا تَلْظِي. أَفَلَا

يَعْتَبِرُ اللَّاحِقُونَ بِالْمَاضِينَ؟!

مَا هِيَ آثَارُ الذُّنُوبِ عَلَى الْأَفْرَادِ

وَالشُّعُوبِ؟ هَذَا أَوَانُ الْحَدِيثِ

عَنْهَا فَأَلْقِ سَمْعَكَ وَأَخْضِرْ قَلْبَكَ.

وَكُنْ مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ.

عبد الهادي بن حسن وهبي (2)

(1) ... «الداء والدواء» (ص 65 – 67).

(2) ... بيروت – لبنان. ص.ب
13/6093 شوران.

هاتف 03/626787 – فاكس
01/791051

موقع الإنترنت:

www.jaressa.moc

البريد الإلكتروني:

ten.jaressa@jaressa

والشعوب

إِنَّ أَضْرَارَ الْمَعَاصِي، وَشُؤْمَ
الذُّنُوبِ عَظِيمٌ وَخَطِيرٌ؛ وَلَهَا «مِنْ
الآثَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ، وَالْمُضِرَّةِ
بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ» (1). فَمِنْهَا:
أَوَّلًا: حِرْمَانُ الْعِلْمِ: فَالْعِلْمُ نُورٌ
يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْمَعْصِيَةُ
تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ، فَكَمْ هِيَ
الْمَعَارِفُ الَّتِي تَعَلَّمْنَاهَا ثُمَّ تَاهَتْ
فِي سَرَائِبِ النِّسْيَانِ، كَانَ سَبَبَ
ذَلِكَ الْمَعَاصِي.

حِينَ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِمَعْصِيَةٍ، وَكَمْ مِنْ
مُجِدِّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ حُرِّمَ بَرَكَتَهُ
ذَلِكَ بِسَبَبِ الذُّنُوبِ.

شَكُوتُ إِلَى وَكَيْعِ سُوءِ حِفْظِي ...

... فَأَرَشَدَنِي إِلَى تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَقَالَ: اَعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ فَضْلٌ ...

... وَفَضْلُ اللَّهِ لَا يُؤْتَاهُ عَاصٍ

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ مِمَّا يُعَاقَبُ بِهِ

النَّاسَ عَلَى الذُّنُوبِ: سَلْبَ الْهُدَى

وَالْعِلْمِ النَّافِعِ» (2).

وَلَمَّا كَانَ أَهْلُ الْقُرُونِ الْمُفْضَلَةِ

مَنْ بَعَدَهُمْ كَانَ دُونَهُمْ فِي تَحْقِيقِ
الْعِلْمِ وَإِصَابَةِ الْحَقِّ.

(1) ... «الداء والدواء» (ص
85).

(2) ... «مجموع الفتاوى»
(152/14).

قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَارِحٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:
«مَا مِنْ أَحَدٍ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ
نَسِيَهُ، إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ؛ وَذَلِكَ بِأَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ؟وما أصابكم من
مصيبةٍ فما كسبت أيديكم ويعفوا

أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ «(1)».

(1) ... رواه ابن المبارك في

«الزهد» (رقم: 85)، وقال

الشيخ أبو إسحاق الحويني في

تعليقه على «فضائل القرآن» لابن

كثير (ص 222): «سنده جيد».

ثَانِيًا: حِرْمَانُ الرِّزْقِ: كَمَا أَنَّ

التَّقْوَى مَجْلَبَةٌ لِلرِّزْقِ، فَتَرُكُ التَّقْوَى

مَجْلَبَةٌ لِلْفَقْرِ. فَمَا اسْتُجِلِبَ رِزْقُ

اللَّهِ بِمِثْلِ تَرْكِ الْمَعَاصِي، وَأَمَّا مَا

نَرَاهُ مِنْ وَاقِعِ الْكُفَّارِ أَوْ الْفَاسِقِينَ

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ

مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعْاصِيهِ مَا يُحِبُّ،

فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ؟ فلما

نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم

أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا

بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم

مبلسون؟ [الأنعام: 44] (1).

أَي: بِمَا أُعْطُوا مِنَ الصَّحَّةِ،

وَالْعَافِيَةِ، وَالْغِنَى، وَالْأَمْوَالِ،

وَالرَّاحَةِ، فَرَحَ بَطَرٍ وَأَشْرٍ، حَتَّى إِذَا

وَهُوَ الْآخِذُ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ؟ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ؟

[هود: 201]. وَمَعْنَى الْبَغْتَةِ:

الْفَجَاءَةُ. وَذَلِكَ أَشَدُّ مَا يُؤْخَذُ بِهِ

الْإِنْسَانُ، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ بِالْعَذَابِ

قَبْلَ نَزْوِلِهِ يَكُونُ مُتَجَلِّدًا مُسْتَعِدًّا.

أَمَّا إِذَا بَغْتَهُ قَبْلَ اسْتِعْدَادِهِ لَهُ فَهَذَا

أَشَدُّ وَأَنْكَى (2).

(1) ... رواه أحمد (4/145)،

وصححه لغيره الألباني رحمه الله

في «الصحيحة» (413).

(1/258 - 259)، بتصرف

يسير.

فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِالرِّزْقِ مَا قَلَّ وَكَفَى،

لَا مَا كَثُرَ وَالْهَى. كَمَا قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ مَا

قَلَّ وَكَفَى، خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ

وَالْهَى» (1). فَكَمْ مِمَّنْ يَمْلِكُ

الْآلَافَ الْمُؤَلَّفَةَ وَهِيَ تُشْقِيهِ وَلَا

تُسَعِدُهُ. فَهُوَ لَا يَنْفَكُ مِنْ ثَلَاثٍ:

هَمٌّ لَا زِمَّ.

وَتَعَبٌ دَائِمٌ.

وَحَسْرَةٌ لَا تَنْقِضِي.

إِلَّا طَمَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى مَا فَوْقَهُ؛

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَاذْيَانٍ

مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمَلَأُ

جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ

اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» (2).

وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ أَحْوَالُهُ مَسْتُورَةٌ هُوَ

قَرِيرُ الْعَيْنِ، هَانِيُ الْبَالِ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنِ الْخَطْمِيِّ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَصْبَحَ

مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافَى فِي

حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا» (3).

قَالَ الحُطَيْئَةُ:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ ...

... وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ

وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا ...

... وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتَقِي مَزِيدٌ

(1) ... قطعة من حديث: رواه

أحمد (197/5)، وصححه

الألباني رحمه الله في «صحيح

الترغيب والترهيب» (1760).

(2) ... رواه البخاري (6436)،

(3) ... رواه الترمذي (2346)،

وحسنه الألباني رحمه الله في

«صحيح سنن الترمذي»

(543/2).

ثَالِثًا: تَعْسِيرُ الْأُمُورِ عَلَى الْعَاصِي

فَلَا يَتَوَجَّهُ لِأَمْرٍ إِلَّا يَجِدُهُ مُغْلَقًا

دُونَهُ أَوْ مُتَعَسِّرًا عَلَيْهِ، وَهَذَا كَمَا

أَنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ

يُسْرًا، فَمَنْ عَطَّلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ

مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا.

وَيَا لَلِ الْعَجَبِ! كَيْفَ يَجِدُ الْعَبْدُ

أَبْوَابَ الْخَيْرِ، وَأَبْوَابَ الْمَصَالِحِ

عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ؟

فِيَا مُسْتَفْتِحًا بَابَ الْمَعَاشِ بِغَيْرِ

مِفْتَاحِ التَّقْوَى! كَيْفَ تُوسِّعُ طَرِيقَ

الْخَطَايَا، وَتَشْكُو ضَيْقَ الرِّزْقِ؟!!

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ؟ وَمَنْ يَتَّقِ

اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ

حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ؟ [الطلاق: 2

- 3].

«فَقَدْ ضَمِنَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ أَنْ يَجْعَلَ

لَهُمْ مَخْرَجًا مِمَّا يُضِيقُ عَلَى النَّاسِ،

وَأَنْ يَرْزُقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا

يَحْتَسِبُونَ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ،

فَلَيْسْتَغْفِرِ اللَّهَ، وَلِيُتَبِّ إِلَيْهِ» (1).

إِذَا كُنْتَ تَتَّقِي اللَّهَ فَتَقِ أَنْ اللَّهَ

سَيَجْعَلُ لَكَ مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ،

وَاعْتَمِدْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ

لِلشَّيْءِ: كُنْ! فَيَكُونُ.

وَلِلَّاهِ دَرُّ الْقَائِلِ:

بِتَقْوَى الْإِلَهِ نَجَا مِنْ نَجَا

وَفَازَ وَصَارَ إِلَى مَا رَجَا

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ كَمَا

قَالَ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجًا

(1) ... «شرح العقيدة

العز الحنفي [المكتب الإسلامي
- بيروت].

«فَشُهُودُ الْعَبْدِ نَقْصَ حَالِهِ إِذَا
عَصَى رَبَّهُ، وَانْسِدَادَ الْأَبْوَابِ فِي
وَجْهِهِ، وَتَوَعُّرَ الْمَسَالِكِ عَلَيْهِ،
حَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ أُتِيَ؟ وَوُقُوعَهُ
عَلَى السَّبَبِ الْمَوْجِبِ لِذَلِكَ، مِمَّا
يُقَوِّي إِيمَانَهُ» (1).

رَابِعًا: حِرْمَانُ الطَّاعَةِ. فَإِنَّ شُؤْمَ
الذُّنُوبِ يُورِثُ الْحِرْمَانَ، وَيَعْقِبُ
الْخُدْلَانَ. فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُوفَّقُ
لِلطَّاعَةِ مَنْ هُوَ فِي شُؤْمِ الْمَعْصِيَةِ؟

يُسِّرَ لَهُ فِي عَمَلِ الصَّالِحَاتِ،

وَأَضَحَّتْ أَهْوُونَ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ،

وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ. حَتَّى يَعِزَّ

عَلَى الْعَبْدِ مُفَارَقَتَهَا، فَلَوْ قِيلَ

لِلْعَبْدِ الْمُحْسِنِ: صَلِّ الْفَجْرَ فِي

الْبَيْتِ مَا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا،

وَلِضَاقَتِهِ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَتْ

عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، وَأَحَسَّ

مِنْ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ الْحُوتُ إِذَا فَارَقَ

الْمَاءَ، حَتَّى يُعَاوِدَ الطَّاعَةَ فَتَسْكُنَ

نَفْسُهُ وَتَقَرَّ عَيْنُهُ، وَلَوْ عَطَّلَ

الْمُجْرِمُ الْمَعْصِيَةَ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ

يُعَاوِدُهَا؛ حَتَّى تَصِيرَ الْمَعَاصِي
هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَصِفَاتٍ لَازِمَةً،
وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً. حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنْ
الْفُسَّاقِ لِيُوقِعُ الْمَعْصِيَةَ مِنْ غَيْرِ
لَذَّةٍ يَجِدُهَا وَلَا دَاعِيَةٍ إِلَيْهَا، إِلَّا لِمَا
يَجِدُ مِنَ الْأَلَمِ بِمُفَارَقَتِهَا، كَمَا
صَرَّحَ بِذَلِكَ شَيْخُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ
بْنُ هَانِيٍّ حَيْثُ يَقُولُ:
وَكَأْسٌ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ
وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

(362/1) - بتصرف - .

عِنْدَمَا شَرِبَ الْكَأْسَ الْأُولَى وَجَدَ
لَذَّةً، وَالْآنَ هُوَ يَشْرَبُ لِيُدْفَعَ الْأَلَمَ
الَّذِي يُعَانِي مِنْهُ. فَهُوَ مُسْتَغْرِقٌ فِي
بِحَارِ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ، وَالْأَحْزَانِ
وَالْآلَامِ وَالْحَسْرَاتِ.

وَقَالَ:

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ ...
... وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
وَقَالَ الْآخَرُ:

وَكَانَتْ دَوَائِي وَهِيَ دَائِي بِعَيْنِهِ ...
... كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلذَّنْبِ عُقُوبَةٌ إِلَّا أَنْ
يَصُدَّ عَنِ الطَّاعَةِ، لَكَانَ فِي ذَلِكَ
كِفَايَةٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحَرَمَانِ.
خَامِسًا: الذُّنُوبُ إِذَا تَكَاثَرَتْ طُبِعَ
عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهَا، فَكَانَ مِنَ
الْغَافِلِينَ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً،
نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا
هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ
قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ

؟ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون؟ [المطففين]:

[14] «(1).

صُقِلَ قَلْبُهُ: حَتَّى يَصِيرَ كَالْمِرْآةِ
الْمَصْقُوعَةِ فِي جِلَائِهَا وَصَفَائِهَا،
فِيْمَتَلَى نُورًا.

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبٍ فَاجِرٍ
... .. فَتَابَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي

رَانَ وَانْجَلَى (2)

(1) ... أخرجه الترمذي

(3334)، وحسنه الألباني رحمه

(1670).

(2) ... «تفسير القرطبي»

(260/91).

وَهَذَا مِثَالٌ لِأَحَدِ الذُّنُوبِ يَضْرِبُهُ

الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لِنَحْذَرَ مِنَ التَّمَادِي فِي الْمَعْصِيَةِ،

لِأَنَّهَا تُسَبِّبُ الْغَفْلَةَ وَالْخْتَمَ عَلَى

الْقَلْبِ، فَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنَّا وَدَعِيهِمْ

الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى

قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنْ

الْغَافِلِينَ» (1).

لِقُلُوبِهِمْ، وَقُلُوبُهُمْ فِيهَا كَالْأَمْوَاتِ

فِي الْقُبُورِ، كَمَا قِيلَ:

فَنَسِيَانُ ذِكْرِ اللَّهِ مَوْتُ قُلُوبِهِمْ ...

... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورٌ

سَادِسًا: وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ: مَا

يَحِلُّ بِالْأَرْضِ مِنَ الْخَسْفِ

وَالزَّلَازِلِ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:

فَكَأَلَا أَخَذْنَا بَذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ

أَخَذْتَهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا

بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا

كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا

[04] أَي: مَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيقُ بِهِ

لِيُظْلِمَهُمْ لِكَمَالِ عَدْلِهِ، وَغِنَاهُ التَّامِّ

عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَلَكِنْ كَانُوا

أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ: مَنَعُوهَا حَقَّهَا

الَّذِي هِيَ بِصَدَدِهِ، فَإِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ

لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ. فَهَوْلَاءِ وَضَعُوهَا

فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَشَغَلُوهَا

بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَعَاصِي، فَضَرُّوهَا

غَايَةَ الضَّرْرِ، مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّهَمْ

يَنْفَعُونَهَا.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا حَدَّثَ لِلْأُمَّمِ

السَّابِقَةِ: مِنَ الْخَسْفِ وَالْمَسْخِ

الْأُمَّةِ، إِذَا سَلَكَوا مَسَالِكَهُمْ
وَأَنْتَهَجُوا مَنَاهَجَهُمْ.

(1) ... رواه مسلم (865).

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَالَ: «فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ
خَسْفٌ، وَمَسْحٌ، وَقَذْفٌ» فَقَالَ
رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
وَمَتَى ذَاكَ؟ قَالَ: «إِذَا ظَهَرَتِ
الْقَيْنَاتُ وَالْمَعَارِيفُ، وَشُرِبَتِ
الْخُمُورُ» (1).

فِي زَمَنِ الْحَاضِرِ ظُهُورًا فَاحِشًا،

مَا ظَهَرَتْ مِثْلَهُ قَطُّ: ظُهُورًا

مَسْمُوعًا بِالْآذَانِ وَمَشْهُودًا بِالْعَيَانِ،

فِي كُلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ: فِي

الْبَيْتِ وَالسُّوقِ وَالِدُّكَانِ» (2).

أَلَيْسَ مَا يُشَاهَدُ فِي الْفَضَائِيَّاتِ

وغيرها، مِنْ ظُهُورِ هَذِهِ الْفَوَاحِشِ

الْمَذْكُورَةِ وَالِدَّعْوَةَ لَهَا وَتَزْيِينَهَا،

تَصْدِيقًا لِهَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ؟!

فَلنَتَّقِ اللَّهَ وَلنُطَهِّرْ بُيُوتَنَا مِنْ هَذِهِ

القَنَوَاتِ الْمُنْحَرِفَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِنَا

الْخَسْفُ وَالْمَسْحُ وَالْقَدْفُ؟!

عَصْرِنَا، مَعَ مَا يَقُومُونَ بِهِ مِنْ
أَفْعَالٍ سَيِّئَةٍ؟! وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ جَلَّ
جَلَالُهُ عَنْ أَمْثَالِهِمْ فَقَالَ: ؟ أَفَأَمِنَ
الَّذِينَ مَكُرُوا السَّيِّئَاتِ؟ - أَيِ
الْقَبِيحَاتِ قَبْحًا شَدِيدًا - ؟ أَنْ
يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ؟
[النحل: 45].

(1) ... رواه الترمذي (2212)،
وحسنه الألباني رحمه الله في
«صحيح سنن الترمذي»

(2) ... «الضياء اللامع من

الخطب الجوامع» (ص 635)،

للعلامة العثيمين رحمه الله.

فَلَيْسَتْحِ الْمُجْرِمِ مِنْ رَبِّهِ، أَنْ تَكُونَ

نِعْمُ اللَّهُ عَلَيْهِ نَازِلَةٌ فِي جَمِيعِ

اللَّحَظَاتِ، وَمَعَاصِيهِ صَاعِدَةً إِلَى

رَبِّهِ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ، وَلَيَعْلَمُ أَنَّ

اللَّهُ يُمْهَلُ وَلَا يُهْمَلُ، وَأَنَّهُ إِذَا أَخَذَ

الْعَاصِي، أَخَذَهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ،

فَلْيُتَبَّ إِلَى اللَّهِ، وَلْيَرْجَعْ فِي جَمِيعِ

أُمُورِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ رُوُوفٌ رَحِيمٌ.

سَابِعًا: الْإِخْتِلَافُ وَالتَّمَرُّقُ: عَنِ

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ

يَقُولُ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،

مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا

بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا» (1).

وَلَمْ يَذْكُرْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ نَوْعَ الذَّنْبِ، بَلْ أَيْ ذَنْبٍ

يَكُونُ سَبَبًا فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ

الْمُتَحَابِّينَ!! وَكَذَلِكَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ

وَالْأَقَارِبِ وَغَيْرِهِمْ، وَهَذَا مِمَّا لَا

يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

(1) ... رواه أحمد (2/68) رقم

الله بمجموع طرقه في
«الصححة» (637).

وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ بَعْضَ
الْجُزْئِيَّاتِ مِنَ الْعِبَادَةِ أَوْ السُّنَّةِ
الْوَاجِبَةِ أَوْ الشَّكَلِيَّاتِ - كَمَا
يُسَمُّونَهَا - لَا تَسْتَوْجِبُ مِثْلَ هَذِهِ
الْعُقُوبَةِ، وَلَكِنْ تَأْمَلُوا الْحَدِيثَ

التَّالِيَّ: عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ
اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّاسِ
بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ
(ثَلَاثًا)، وَاللهِ لَتُقِيمَنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ

فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ
صَاحِبِهِ، وَرُكْبَتَهُ بِرُكْبَةِ صَاحِبِهِ،
وَكَعْبَهُ بِكَعْبِهِ (1).

فَهَذِهِ عُقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ - وَهِيَ

اِخْتِلَافُ الْقُلُوبِ - يُحَذِّرُنَا

الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَيُخَوِّفُنَا مِنْهَا نَتِيجَةً لِعَدَمِ إِقَامَةِ

الصَّفِّ فِي الصَّلَاةِ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ

أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنَ الذُّنُوبِ!؟

وَالْعَجَبُ مِمَّنْ يُهَوِّنُ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ

السُّنَّةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا

الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَأَقْرَبُهُمْ

ثَامِنًا: الْهَزَائِمُ الْعَسْكَرِيَّةُ: فِي غَزْوَةِ
أُحُدٍ كَانَتْ بَدَايَةَ الْمَعْرَكَةِ لِصَالِحِ
الْمُسْلِمِينَ، وَلَمَّا رَأَى الرَّمَاهُ
إِخْوَانَهُمْ يَتَقَاسِمُونَ الْغَنَائِمَ تَرَكَ
مُعْظَمَهُمُ الْجَبَلَ، فَكَانَ مَا كَانَ
وَحَصَلَ مَا حَصَلَ وَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ.

(1) ... رواه أبو داود (662)،

وصححه الألباني رحمه الله في

«صحيح سنن أبي داود»

(196/1).

نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ؟ أَوْلَمَا
أَصَابَتْكُمْ مَصِيبَةٌ؟ - حِينَ أَصَابَهُمْ
مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ
نَحْوُ سَبْعِينَ - ؟ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِيهَا؟
- مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَتَلْتُمْ سَبْعِينَ
مِنْ كِبَارِهِمْ، وَأَسْرْتُمْ سَبْعِينَ -
؟ قَلْتُمْ أَنِي هَذَا؟ - أَيُّ: مِنْ أَيْنَ
أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا وَهَزَمْنَا؟ - ؟ قَل
هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ؟ - حِينَ
تَنَازَعْتُمْ وَعَصَيْتُمْ - ؟ إِنْ اللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟ [آلِ عِمْرَانَ:

يُنْقَلِبُ إِلَى هَزِيمَةٍ إِذَا حَصَلَتْ

الْمَعْصِيَةُ، وَمِمَّا هُوَ جَدِيرٌ

بِالْمُلاحَظَةِ؛ أَنَّ صُفُوفَ الْمُسْلِمِينَ

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ تَضُمُّ إِلَيْهَا

الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَيْرَ

الْأَنَامِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بَعْدَ

الْأَنْبِيَاءِ صَحَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّ هَذَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْ

نُزُولِ الْعُقُوبَةِ بِسَبَبِ وَقُوعِ بَعْضِهِمْ

فِي الْمَعْصِيَةِ؛ فَكَيْفَ بِصُفُوفِ

الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ، وَقَدْ كَثُرَ الْخَبْثُ،

وَوَظَّهَرَتْ أَلْوَانُ الْفَسَادِ فِي كَثِيرٍ مِنْ

«إِنَّ الطَّمَعَ فِي النَّصْرِ بِدُونِ وُجُودِ
أَسْبَابِهِ، طَمَعٌ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ؛ إِنَّهُ
كَالطَّمَعِ فِي الْأَوْلَادِ بِدُونِ نِكَاحِ،
وَكَالطَّمَعِ فِي الْأَشْجَارِ بِدُونِ غَرْسِ،
أَوْ فِي رِيحِ التَّجَارَةِ بِدُونِ
اتِّجَارٍ» (1).

(1) ... «الضياء اللامع» (ص
327).

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ!

تَعْصُوا اللَّهَ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ؛ بَعَثَ
إِلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ كَمَا يُلْحَى هَذَا
الْقَضِيبُ» - لِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ - ،
ثُمَّ لَحَا قَضِيْبَهُ، فَإِذَا هُوَ أَبْيَضُ
يَصْلِدُ (1).

يُلْحَى: أَي يَقْشُرُ، وَالصَّلْدُ: هُوَ
الْأَمْلَسُ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ
نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ
اسْتَمَرَّتِ الْخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ عِدَّةَ
قُرُونٍ، ثُمَّ دَالَتْ دَوْلَتُهُمْ،
بَعْضِيَانِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَاتَّبَاعِهِمْ

الْأَعَاجِمِ مَنْ أَخَذَ الْحُكْمَ مِنْ
أَيْدِيهِمْ، وَذَلَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْ
بَعْدِهِمْ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَلِذَلِكَ
فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ - إِذَا كَانُوا
صَادِقِينَ فِي سَعْيِهِمْ لِإِعَادَةِ الدَّوْلَةِ
الإِسْلَامِيَّةِ - أَنْ يَتُوبُوا إِلَى رَبِّهِمْ،
وَيَرْجِعُوا إِلَى دِينِهِمْ، وَيَتَّبِعُوا أَحْكَامَ
شَرِيعَتِهِمْ (2).

(1) ... رواه أحمد (1/458)

رقم: 4380)، وصححه الألباني

رحمه الله في «الصحيحة»

(2) ... «السلسلة الصحيحة»

(70/4).

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ

قُبْرُسُ، وَفُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَى

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، رَأَيْتُ أَبَا

الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي؛

فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، مَا يُبْكِيكَ

فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ

وَأَهْلَهُ؟! قَالَ: «وَيُحَكُّ يَا جُبَيْرُ، مَا

أَهْوَنَ الْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ! إِذَا هُمْ

تَرَكُوا أَمْرَهُ؛ بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ

ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمَلِكُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ

تَرَى» (1).

وَحَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ هَذَا يُلْقِي
الأضواءَ الكاشفةَ على الأسبابِ،
وَالخُطُوبِ الكَامِنَةِ وَرَاءَ نَكْبَةِ أُمَّتِنَا
الإِسْلَامِيَّةِ، فَلَمَّا تَرَكْنَا أَمْرَ رَبِّنَا
صُرْنَا إِلَى مَا صُرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الفِرْقَةِ
وَالشَّتَاتِ وَالذُّلِّ وَالهُوَانِ (2).

تَاسِعًا: المَعَاصِي سَبَبٌ لِهَوَانِ العَبْدِ
عَلَى رَبِّهِ. وَمَتَى هَانَ العَبْدُ عَلَى اللَّهِ
جَلَّ وَعَلَا لَمْ يُكْرِمْهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ
تَعَالَى: ؟ وَمَنْ يَهِنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ
مَكْرَمٍ إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ؟

أَهَانَهُ اللَّهُ؟! وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى

اللَّهِ، انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الْخَيْرِ،

وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ.

إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلَ عَبْدٍ بِنَفْسِهِ ...

... فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ

يُكْرِمُ (3)

«فَلَا إِكْرَامَ أَعْلَى مِنْ إِكْرَامِ اللَّهِ

الْعَبْدَ عَلَى شُكْرِهِ، وَلَا إِهَانَةَ أَوْضَعُ

مِنْ إِهَانَتِهِ عَلَى كُفْرِهِ» (4).

(1) ... رواه أحمد في «الزهد»

(ص 176)، بسند صحيح.

هدم الأمم والشعوب» (ص 62)،
للصوف.

(3) ... «الداء والدواء» (ص
123).

(4) ... «فتح الحميد في شرح
التوحيد» (4/1818).

«فَإِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ كَرِيمًا
عِنْدَ اللَّهِ وَذَا مَنزِلَةٍ عِنْدَهُ، فَعَلَيْكَ
بِالتَّقْوَى. فَكُلَّمَا كَانَ الْإِنْسَانُ لِلَّهِ
أَتَقَى، كَانَ عِنْدَهُ أَكْرَمَ» (1).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

عند الله أتقاكم إن الله خير بما

تعملون؟ [الحجرات: 31].

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ

كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ

عَلَى اللَّهِ» (2).

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنَ

الْمُتَّقِينَ.

عَاشِرًا: دَاءُ الْأُمَّمِ!! فَمَا دَاءُ

الْأُمَّمِ!؟

عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

[قَبْلَكُمْ]: الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ؛ هِيَ

الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحْلِقُ الشَّعْرَ؛

وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ... «(3).

الْحَالِقَةُ: الْخَصْلَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا

أَنْ تَحْلِقَ: أَيُّ: تُهْلِكُ وَتَسْتَأْصِلُ

الدِّينَ، كَمَا يَسْتَأْصِلُ الْمُوسَى

الشَّعْرَ.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ

يُعَجَّلَ اللَّهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ

فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي

(1) ... «شرح رياض الصالحين»

(523/1)، للعلامة العثيمين

رحمه الله [مدار الوطن للنشر -

الرياض].

(2) ... أخرجه الترمذي

(3270)، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ

الألباني رحمه الله في «صحيح

سنن الترمذي» (334/3).

(3) ... رواه الترمذي (2510)،

وحسنه الألباني رحمه الله في

(607/2).

(4) ... رواه أبو داود (4902)،

وصححه الألباني رحمه الله في

«صحيح سنن أبي داود»

(202/3).

«وَقَدْ سَبَقَتْ سُنَّةُ اللَّهِ: أَنَّهُ لَوْ بَغَى

جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ، جَعَلَ الْبَاغِي

مِنْهُمَا دَكًّا» (1).

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ ...

... لِأَنَّكَ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

الْأُمَمِ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا
دَاءُ الْأُمَمِ؟ قَالَ: «الْأَشْرُ وَالْبَطْرُ،
وَالْتَّكَاثُرُ وَالتَّنَاجُشُ فِي الدُّنْيَا،
وَالْتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، حَتَّى يَكُونَ
الْبَغْيُ» (2).

الْأَشْرُ: أَي كُفْرُ النِّعْمَةِ.

الْبَطْرُ: الطُّغْيَانُ عِنْدَ النِّعْمَةِ، وَشِدَّةُ

الْمَرَحِ وَالْفَرَحِ، وَطُولُ الْغِنَى.

وَالْتَّكَاثُرُ: جَمْعُ الْمَالِ.

وَالْتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ: أَي تَمَنِّي

زَوَالِ نِعْمَةِ الْغَيْرِ.

حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ: أَي مُجَاوِزَةً

التَّنَافُسِ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهَا أَسَاسُ
الْآفَاتِ، وَرَأْسُ الْخَطِيئَاتِ، وَأَصْلُ
الْفِتَنِ، وَعَنْهُ تَنْشَأُ الشُّرُورُ.
وَهَذِهِ الذُّنُوبُ وَالْعُقُوبَاتُ السَّبْعَةُ
- الَّتِي سَمَّاها الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَاءَ الْأُمَمِ - مَوْجُودَةٌ
عِنْدَ عَدَدٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى وَصَلَ
الْأَمْرُ إِلَى الْمَحَاكِمِ بَيْنَ الْأَخِ
وَأَخِيهِ، وَالْأَبِ مَعَ أَبْنَائِهِ بِسَبَبِهَا أَوْ
غَيْرِهَا. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

مكة المكرمة].

(2) ... رواه الحاكم (168/4)

رقم 7311)، وحسنه الألباني

رحمه الله في «الصححة»

(680).

«الْمَصَائِبُ تَتَفَاوَتْ، فَأَعْظَمُهَا

الْمُصِيبَةُ فِي الدِّينِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ

ذَلِكَ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ

يُصَابُ بِهَا الْإِنْسَانُ» (1).

اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا.

الْحَادِي عَشَرَ: الْمَعَاصِي مُمَحِقَةٌ

بِرَكَّةِ الْعُمْرِ، وَبِرَكَّةِ الرِّزْقِ، وَبِرَكَّةِ

وَبِالْجُمْلَةِ تَمَحَقُ بَرَكَةُ الدِّينِ

وَالدُّنْيَا، فَلَا تَجِدُ أَقْلَ بَرَكَةً فِي

عُمُرِهِ وَدِينِهِ وَدُنْيَاهُ مِمَّنْ عَصَى اللَّهَ،

وَمَا مُحِقَّتِ الْبَرَكَةُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا

بِمَعَاصِي الْخَلْقِ. وَتَرَكَ الْمَعَاصِي

وَالْمُحَرَّمَاتِ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ

نُزُولِ الْبَرَكَاتِ: مِنَ الْخَيْرَاتِ

وَالْأَنْعَامِ وَالْأَرْزَاقِ، وَالْأَمْنِ

وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْآفَاتِ. قَالَ اللَّهُ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ؟ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى

آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ

مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَبُوا

[الأعراف: 96]. فَأَرْسَلَ السَّمَاءَ

عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا، وَأَنْبَتَ لَهُمْ مِنَ

الْأَرْضِ، مَا بِهِ يَعِيشُونَ، وَتَعِيشُ

بِهَائِمُهُمْ، فِي أَخْصَبِ عَيْشٍ،

وَأَغْزَرَ رِزْقٍ، مِنْ غَيْرِ عَنَاءٍ وَلَا

تَعَبٍ، وَلَا كَدٍّ وَلَا نَصَبٍ. وَقَالَ

تَعَالَى: ؟وَأَلُو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ

لَأَسْقِيَنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا؟ [الجن:

16]، أَي: مَاءً هَنِئًا مَرِيئًا.

(1) ... «تسليّة أهل المصائب»

(ص 27)، بتصرف يسير.

النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَا
النَّاسَ، فَقَالَ: «هَلُمُّوا إِلَيَّ»
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ فَجَلَسُوا، فَقَالَ: «هَذَا
رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ جِبْرِيلُ صَلَّى
اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَثَ فِي رُوعِي:
أَنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ
رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا؛ فَاتَّقُوا اللهَ،
وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ
اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ: أَنْ تَأْخُذُوهُ
بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا
عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ» (1).

وَلَيْسَتْ سَعَةُ الرِّزْقِ وَالْعَمَلِ

فِيهِ. وَلَا طُولُ الْعُمُرِ بِكَثْرَةِ الشُّهُورِ
وَالْأَعْوَامِ، وَلَكِنْ مَا كَانَ مِنْ وَقْتِهِ
لِلَّاهِ وَبِاللَّهِ فَهُوَ حَيَاتُهُ وَعُمُرُهُ، وَغَيْرُ
ذَلِكَ لَيْسَ مَحْسُوبًا فِي حَيَاتِهِ.
«وَأِنَّمَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ سَبَبًا
لِمَحَقِّ بَرَكَاتِ الرَّزْقِ وَالْأَجَلِ، لِأَنَّ
الشَّيْطَانَ مُوَكَّلٌ بِهَا وَبِأَصْحَابِهَا؛
فَسُلْطَانُهُ عَلَيْهِمْ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ
بِهِ الشَّيْطَانُ وَيُقَارِنُهُ فَبَرَكَتُهُ
مَمْحُوقَةٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَا يَكُونُ لِلَّهِ
فَبَرَكَتُهُ مَنْزُوعَةٌ» (2).

الأستار» (1253)، وقال الألباني
رحمه الله في «صحيح الترغيب
والترهيب» (1702): «حسن
صحيح».

(2) ... «الداء والدواء» (ص
131 - 132).

«فَكُلُّ زَمَانٍ شَغَلَهُ الْمُؤْمِنُ بِطَاعَةِ
اللَّهِ، فَهُوَ زَمَانٌ مُبَارَكٌ عَلَيْهِ؛ وَكُلُّ
زَمَانٍ شَغَلَهُ الْعَبْدُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ
تَعَالَى، فَهُوَ مَشُورٌ عَلَيْهِ. فَالشُّؤْمُ
فِي الْحَقِيقَةِ: هُوَ مَعْصِيَةُ اللَّهِ
تَعَالَى» (1). وَالْيَمْنُ وَالْبَرَكََةُ: هُوَ

وَفِي الْجُمْلَةِ: فَلَا شُؤْمَ إِلَّا
الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبُ؛ فَإِنَّهَا تُسْحَطُ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
قَالَ: أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ، وَذَكَرَ
مِنْهَا: «إِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ؛ فَإِنَّ
بِالْمَعْصِيَةِ حَلَّ سَخَطِ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ» (2).

فَإِذَا سَخِطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى
عَبْدِهِ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا
أَنَّهُ إِذَا رَضِيَ عَنْ عَبْدِهِ سَعِدَ فِي

عِبَادَ اللَّهِ: احذَرُوا الذُّنُوبَ، فَإِنَّهَا
مَشُورَةٌ، عَوَاقِبُهَا ذَمِيمَةٌ،
وَعُقُوبَاتُهَا أَلِيمَةٌ، وَالْقُلُوبُ الْمُحِبَّةُ
لَهَا سَقِيمَةٌ، وَالنُّفُوسُ الْمَائِلَةُ إِلَيْهَا
غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ، وَالسَّلَامَةُ مِنْهَا
غَنِيمَةٌ، وَالْعَافِيَةُ مِنْهَا مَحْمُودَةٌ،
وَالْبَلِيَّةُ بِهَا، لَا سِيَّمَا بَعْدَ نُزُولِ
الشَّيْبِ، دَاهِيَةٌ عَظِيمَةٌ.

طَاعَةُ اللَّهِ خَيْرٌ مَّا اكْتَسَبَ الْعَبْدُ
... .. فَكُنْ طَائِعًا لِلَّهِ لَا تَعْصِيَنَّهُ
... مَا هَلَكَ النَّفُوسِ إِلَّا الْمَعَاصِي ...
... فَاجْتَنِبْ مَا نَهَاكَ لَا تَقْرَبَنَّه

... يَنْبَغِي أَنْ تَصُونَ نَفْسَكَ عَنْهُ

(1) ... «لطائف المعارف» (ص 151).

(2) ... رواه أحمد (238/5)،

وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في

«صحيح الترغيب والترهيب»

(570).

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «مَا كَرِهَ اللَّهُ مِنْكَ شَيْئًا، فَلَا

تَفْعَلُهُ إِذَا خَلَوْتَ» (1).

صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ

تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ

اللَّهِ! صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا

نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ

صلى الله عليه وسلم: «أَمَّا إِنَّهُمْ

إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ

مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ

أَقْوَامٌ، إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ،

انْتَهَكُوهَا» (2).

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرَبِّهِ فِي ظُلْمَةٍ ...
... وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ
فَاسْتَحْيِ مِنْ نَظَرِ الْإِلَهِ وَقُلْ لَهَا ...
... إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ

يَرَانِي (3)

(1) ... رواه ابن حبان (403)،

وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في

«الصحيحة» (1055).

(2) ... رواه ابن ماجه (4245)،

وصححه الألباني رحمه الله في

«صحيح الترغيب والترهيب»

(3) ... «نونية القحطاني» (ص

90).

الثَّانِي عَشَرَ: الْمَعْصِيَةُ تُورِثُ الدُّلَّ
وَلَا بُدَّ؛ فَإِنَّ الْعِزَّ كُلَّ الْعِزِّ فِي طَاعَةِ
اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ؟؟ ؟؟ ؟؟ ؟

؟؟؟ [فاطر: 01]؛ «أي: مَنْ

كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ وَيَطْلُبُهَا فَلْيَطْلُبْهَا

مِنَ اللَّهِ، فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا لَيْسَ

لِغَيْرِهِ مِنْهَا شَيْءٌ، فَتَشْمَلُ الْآيَةُ كُلَّ

مَنْ طَلَبَ الْعِزَّةَ، وَيَكُونُ الْمَقْصُودُ

بِهَا التَّنْبِيهِ لِذَوِي الْأَقْدَارِ وَالْهِمَمِ

مِنْ أَيْنَ تُنَالُ الْعِزَّةُ وَتُسْتَحَقُّ، وَمِنْ

يُرِيدُ الْعِزَّةَ، فَلِيَطْلُبَهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ
وَذِكْرِهِ، مِنْ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ» (2).

«فَإِنَّ الْمُطِيعَ لِلَّهِ عَزِيزٌ، وَإِنْ كَانَ
فَقِيرًا لَيْسَ لَهُ أَعْوَانٌ» (3). وَكُلَّمَا
كَانَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ فِيهِ أَكْمَلَ، كَانَ
أَشَدَّ عِزَّةً وَأَكْمَلَ رِفْعَةً.

وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ! النَّاسُ يَتَعَرَّفُونَ
إِلَى مُلُوكِهِمْ وَكُبْرَائِهِمْ، وَيَتَقَرَّبُونَ
إِلَيْهِمْ لِيَنَالُوا بِهِمُ الْعِزَّةَ وَالرِّفْعَةَ،
فَتَعَرَّفَ أَنْتَ إِلَى اللَّهِ، وَتَوَدَّدَ إِلَيْهِ:
تَنَلْ بِذَلِكَ غَايَةَ الْعِزِّ وَالرِّفْعَةِ.

مَنْ وَآلِيَتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ»،
وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ وَالَاهُ فِيمَا
أَطَاعَهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الْعِزِّ بِحَسَبِ
طَاعَتِهِ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَادَاهُ فِيمَا
عَصَاهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الذُّلِّ بِحَسَبِ
مَعْصِيَتِهِ (4).

(1) ... «الداء والدواء» (ص
277).

(2) ... «المجموعة الكاملة»
(258/3).

(3) ... «الداء والدواء» (ص

(4) ... «الداء والدواء» (ص 277).

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِلْأَنْصَارِ: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ! أَلَمْ
تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ؟» قَالُوا:
صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ (1).

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي عُبَيْدَةَ
بِ بْنِ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّا
كُنَّا أَذِلَّةً قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالإِسْلَامِ،
فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا
اللَّهُ بِهِ، أَذَلَّنَا اللَّهُ» (2).

فَصَاحِبُ الطَّاعَةِ عَزِيزٌ، بَعِزَّةَ اللَّهِ،

اللَّهُ، مَحْمُودٌ فِي أُمُورِهِ، حَسَنُ
الْعَاقِبَةِ. وَصَاحِبُ الْمَعْصِيَةِ ذَلِيلٌ،
فَلَا عِزَّ لَهُ، وَلَا قَائِمَةَ تَقُومُ لَهُ.
وَلِذَلِكَ يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ: «وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ
عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي» (3).

«وَمُخَالَفَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ عَلَى قِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَنْ
يُخَالَفُ أَمْرَهُ بِالْمَعَاصِي، فَلَهُ
نَصِيبٌ مِنَ الذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ. وَأَهْلُ
هَذَا النَّوْعِ خَالَفُوا الرَّسُولَ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ أَجْلِ دَاعِي

وَالنَّوعُ الثَّانِي: مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ مِنْ
أَجْلِ الشُّبُهَاتِ، وَهُمْ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ
وَالْبِدَعِ، فَكُلُّهُمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ
الذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ، بِحَسَبِ مُخَالَفَتِهِمْ
لِأَمْرِهِ» (4).

قَالَ الشَّاعِرُ:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ...
... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

(1) ... رواه أحمد (57/3)،

وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

(2) ... رواه الحاكم (61/1) –

(3) ... قطعة من حديث رواه

أحمد (50/2)، وَصَحَّحَهُ الألباني

رحمه الله في «صحيح الجامع»

(2831).

(4) ... انظر: «الحكم الجديدة

بالإذاعة» (ص 31 - 32)، لابن

رجب رحمه الله.

وَتَرَكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ...

... .. وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عَصِيَانُهَا

حَيَاةُ الأَبْدَانِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ،

وَحَيَاةُ القُلُوبِ بِالذِّكْرِ وَتَرَكَ

الذُّنُوبِ.

العِزَّةَ فَتَحَرَّاهَا، وَمَوَاطِنَ الدُّلِّ
فَتَوَقَّاهَا.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَهُوَ الْمُعِزُّ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ وَذَا ...

... عِزُّ حَقِيقِيٍّ بِلَا بُطْلَانٍ

وَهُوَ الْمُدِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ بِدِلَّةٍ الـ ...

... مَدَّارَيْنِ دُلٌّ شَقًّا وَدُلٌّ

هَوَانٍ (1)

وَهَذَا الدُّلُّ وَالْهَوَانُ الَّذِي أَصَابَ

أُمَّتَنَا، لَا يُرْفَعُ إِلَّا بِالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ

تَعَالَى.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

وسلم يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ،

وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقْرِ، وَرَضِيْتُمْ

بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللَّهُ

عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا

إِلَى دِينِكُمْ» (2).

فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا

تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ» إِشَارَةٌ إِلَى نَوْعٍ مِنَ

الْمُعَامَلَاتِ الرَّبَوِيَّةِ، ذَاتِ التَّحَايُلِ

عَلَى الشَّرْعِ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقْرِ» إِشَارَةٌ إِلَى

الِاهْتِمَامِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَالرُّكُونِ

وَأَحْكَامِهَا.

(1) ... «الكافية الشافية» (ص

213) [دار ابن الجوزي -

الدَّمَام].

(2) ... رواه أبو داود (3462)،

وصححه الألباني رحمه الله في

«صحيح سنن أبي داود»

(365/2).

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ» وَهَذَا مَحْمُولٌ

عَلَى مَنْ شَغَلَهُ الْحَرْثُ وَالزَّرْعُ عَنِ

عَنِ الدِّينِ .

عَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ

عنه قَالَ - وَرَأَى سِكَّةً وَشَيْئًا مِنْ

آلَةِ الْحَرْثِ - فَقَالَ: سَمِعْتُ

رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ؛

إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الدُّلَّ» (1).

وَهَذَا الْحَدِيثُ تَرْجَمَ لَهُ الْبُخَارِيُّ

بِقَوْلِهِ: «بَابُ مَا يُحْذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ

الِاشْتِغَالِ بِآلَةِ الزَّرْعِ، أَوْ مُجَاوِزَةِ

الْحَدِّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ» .

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إِلَى الدُّنْيَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ

لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَاقَلْتُمْ

إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا

مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي

الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ؟ [التوبة: 38].

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لَا يَنْزِعُهُ

حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ» فِيهِ إِشَارَةٌ

صَرِيحَةٌ إِلَى أَنَّ الرُّجُوعَ إِلَى الدِّينِ

طَرِيقُنَا إِلَى رَفْعِ الدُّلِّ، وَالدِّينُ

الَّذِي يَرْفَعُ الدُّلَّ هُوَ الْأَمْرُ الْأَوَّلُ

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ.

(1) ... رواه البخاري (2321).

عَنْ أَبِي وَاقِدِ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ قَالَ - وَنَحْنُ جُلُوسٌ عَلَى

بِسَاطٍ - : «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةً».

قَالُوا: كَيْفَ نَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: فَرَدَّ يَدَهُ إِلَى الْبِسَاطِ؛

فَأَمْسَكَ بِهِ، قَالَ: «تَفْعَلُونَ

هَكَذَا»، وَذَكَرَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا: «أَنَّهَا

النَّاسِ، فَقَالَ مُعَاذٌ: تَسْمَعُونَ مَا

يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ؟ قَالُوا: مَا قَالَ؟ قَالَ: يَقُولُ:

«إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةً». قَالُوا: فَكَيْفَ

لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ أَوْكَيْفَ نَصْنَعُ؟

قَالَ: «تَرْجِعُونَ إِلَى أَمْرِكُمْ

الْأَوَّلِ» (1).

فَالذُّلُّ قَدْ نَزَلَ بِنَا، وَالْهَوَانُ قَدْ

أَحَاطَ بِخِيَامِنَا، وَالْعَذَابُ قَدْ أَحْدَقَ

بِسَاحَتِنَا، فَلَا يَرْفَعُ اللَّهُ كُلَّ ذَلِكَ

عَنَّا حَتَّى نَعُودَ إِلَى دِينِنَا.

إِذَا لَا بُدَّ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْعُودَةِ

عَلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَأَصْحَابُهُ: فِي الْعَقِيدَةِ، وَفِي
الْعِبَادَةِ، وَفِي السُّلُوكِ، وَفِي كُلِّ مَا
يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ الشَّرِيعَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَنْ
يُصْلِحَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِلَّا بِمَا
صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا».

(1) ... رواه الطحاوي في «شرح
مشكل الآثار» (4811)،
وصححه الألباني رحمه الله في
«الصحيحة» (3165).

«هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَخْلَاقِ وَأَجَلِّهَا،
وَأَعْظَمِهَا قَدْرًا، وَأَكْثَرِهَا نَفْعًا».

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ

الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ» (1).

«وَهُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَهُوَ

أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ

الْخَيْرِ أَجْمَعِهِ» (2).

فَإِنَّ حَيَاةَ الْقَلْبِ هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ

الْقَبَائِحِ الَّتِي تُفْسِدُ الْقَلْبَ. فَإِنَّ

الْحَيَّ يَظْهَرُ عَلَيْهِ التَّأَثُّرُ بِالْقَبِيحِ،

وَلَهُ إِرَادَةٌ تَمْنَعُهُ عَنِ فِعْلِ الْقَبِيحِ،

فَلَا حَيَاءَ مَعَهُ، وَلَا إِيمَانَ يَزْجُرُهُ عَنْ
ذَلِكَ (3). فَلَا يَحْسُ بِمَا يُؤْلِمُهُ مِنَ
الْقَبَائِحِ.

لِذَلِكَ تَرَاهُ يَرْضَى بِتَبَرُّجِ زَوْجَتِهِ
وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ، وَمُخَالَطَتِهَا لِلرِّجَالِ،
وَدُخُولِهَا عَلَيْهِمْ وَدُخُولِهِمْ عَلَيْهَا،
حَتَّى عَظُمَ الشَّرُّ وَعَظُمَ الْبَلَاءُ.

وَمِنْ تِلْكَ الْبَلَايَا: الْأَجْهَزَةُ الْخَبِيثَةُ
الَّتِي يُدْخِلُهَا الْمُسْلِمُ بَيْتَهُ، فَإِنَّهَا
تُرَبِّي زَوْجَتَهُ وَبَنَاتَهُ عَلَى ذَهَابِ
الْحَيَاءِ.

يَعْكُفُ عَلَيْهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، عَلَى

وَاسْتِمَاعِ الْأَصْوَاتِ الْفَاجِرَةِ، الَّتِي
تَعْمَلُ فِي الْقُلُوبِ أَعْظَمَ مِنْ السُّمِّ
فِي الْأَبْدَانِ، دُونَ حَسِيبٍ أَوْ
رَقِيبٍ.

(1) ... رواه ابن ماجه (4181)،

وصححه لغيره الألباني رحمه الله

في «الصحيحة» (940).

(2) ... «الداء والدواء» (ص

110).

(3) ... «مجموع الفتاوى»

(109/10 - 110).

وَحَسَارَةٌ مَا أَكْبَرَهَا؟ بُلِيَّ بِهَا كَثِيرٌ
مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَصَادَ بِهَا
الشَّيْطَانُ الْخَلْقَ الْكَثِيرَ، وَالْجَمَّ
الْغَفِيرَ.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ

كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ

تَسْتَحْيَ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ» (1).

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الرَّادِعَ عَنِ الْقَبِيحِ إِنَّمَا

هُوَ الْحَيَاءُ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ فَإِنَّهُ

يَصْنَعُ مَا شَاءَ.

عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْإِمْسَاكِ عَنْهَا،
وَأَنَّهُ كَالسِّدِّ إِذَا تَحَطَّمَ انْهَمَرَ الْمَاءُ
يُغْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ، فَالَّذِي لَا حَيَاءَ
لَهُ لَا سِدَّ عِنْدَهُ، فَهَذَا لَا يَمْنَعُهُ
مَانِعٌ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ
لِيَفْعَلَهَا، وَلَا يَرَى بِهَا بَأْسًا.

وَقَالَ الْقَائِلُ:

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي

وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلَّا الْحَيَاءُ

فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا وَلَكِنْ

إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ فَلَا دَوَاءَ

وَلِلَّاهِ دَرُّ الْقَائِلِ:

وَلَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ ...
... وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ
يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَى بِخَيْرٍ ...
... وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللَّحَاءُ
يَبْقَى الْعُودُ غَضًّا طَرِيًّا مَا بَقِيَتْ
الْقَشْرَةُ الْخَضْرَاءُ، فَإِنْ سَقَطَتْ
فَقَدْ آذَنْتَ حَيَاتَهُ بِالضُّمُورِ.

(1) ... رواه البخاري (6120).

الرَّابِعُ عَشَرَ: وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا
تُزِيلُ النِّعَمَ الْحَاضِرَةَ، وَتَقْطَعُ النِّعَمَ

الْحَاصِلَ، وَتَمَنَعُ الْوَاصِلَ؛ فَكُمْ
أَزَالَتْ مِنْ نِعْمَةٍ، وَكُمْ جَلَبَتْ مِنْ
نِقْمَةٍ، وَكُمْ أَحَلَّتْ مِنْ مَذَلَّةٍ وَبَلِيَّةٍ؟!
فَمَا زَالَتْ عَنِ الْعَبْدِ نِعْمَةٌ إِلَّا
بِذَنْبٍ، وَلَا حَلَّتْ بِهِ نِقْمَةٌ إِلَّا
بِذَنْبٍ، فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ مَا حُفِظَ
مَوْجُودَهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا
اسْتُجْلِبَ مَفْقُودَهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ،
فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يُنَالُ إِلَّا
بِطَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا وَآفَةً: سَبَبًا يَجْلِبُهُ،
وَآفَةً تُبْطِلُهُ؛ فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعْمِهِ

مِنْهَا مَعْصِيَتُهُ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ حِفْظَ
نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَلْهَمَهُ رِعَايَتَهَا
بِطَاعَتِهِ فِيهَا، وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ
خَذَلَهُ حَتَّى عَصَاهُ بِهَا. وَمِنْ
الْعَجَبِ عِلْمُ الْعَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهِدَةً
فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَسَمَاعًا لِمَا غَابَ
عَنْهُ مِنْ أَخْبَارِ مَنْ أُزِيلَتْ نِعْمُ اللَّهِ
عَنْهُمْ بِمَعَاصِيهِ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى
مَعْصِيَةِ اللَّهِ.

وَكَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَارٍ عَلَى النَّاسِ لَا
عَلَيْهِ، وَوَأَصِلُ إِلَى الْخَلْقِ لَا إِلَيْهِ.
فَأَيُّ جَهْلٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا؟! وَأَيُّ

«فَمَا حَصَلَ لِلْعَبْدِ حَالٌ مَكْرُوهَةٌ
قَطُّ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ
أَكْثَرُ» (1).

قَالَ تَعَالَى: ؟ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ
مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا
عَنْ كَثِيرٍ؟ [الشورى: 30].

(1) ... «مدارج السالكين»

(321/1)، و«تهذيب المدارج»

(360/1).

يَعْنِي: مَا أَصَابَ الْعِبَادَ مِنْ مُصِيبَةٍ،

فِي أَبْدَانِهِمْ، وَأَمْوَالِهِمْ، وَأَوْلَادِهِمْ،

عَلَيْهِمْ، إِلَّا بِسَبَبِ مَا قَدَّمَتْهُ أَيْدِيهِمْ
مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَأَنَّ مَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ
أَكْثَرُ.

«فَمَا سُلِّطَ عَلَى الْعَبْدِ مَنْ يُؤْذِيهِ
إِلَّا بِذَنْبٍ يَعْلَمُهُ أَوْ لَا يَعْلَمُهُ، وَمَا
لَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ، أَضْعَافُ
مَا يَعْلَمُهُ مِنْهَا، وَمَا يَنْسَاهُ مِمَّا
عَمِلَهُ وَعَلِمَهُ؛ أَضْعَافُ مَا
يَذْكُرُهُ» (1).

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: «مَا اخْتَلَجَ عِرْقٌ، وَلَا عَيْنٌ
إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَدْفَعُ اللَّهُ [عَنْهُ]

فَيَعْفُو سُبْحَانَهُ عَنِ كَثِيرٍ مِنْ
إِجْرَامِكُمْ، فَلَا يُعَاقِبُكُمْ بِهَا، فَإِنَّهُ
تَعَالَى لَوْ عَاقَبَ عِبَادَهُ بِإِجْرَامِهِمْ،
مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ، كَمَا
قَالَ تَعَالَى: ؟ وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ
بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ
دَابَّةٍ؟ [فاطر: 45].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّ اللَّهَ يُوَاخِذُنِي
وَعِيسَى بِذُنُوبِنَا، لَعَذَّبَنَا وَلَا يَظْلِمُنَا
شَيْئًا» قَالَ: وَأَشَارَ بِالسَّبَابَةِ وَالَّتِي

(1) ... «بدائع الفوائد»

(770/2).

(2) ... رواه الطبراني في

«الصغير» (1053)، وصححه

الألباني رحمه الله في «صحيح

الجامع» (5521).

(3) ... رواه ابن حبان (659)،

وصححه الألباني رحمه الله في

«الصحيحة» (3200).

وَأَعْظَمُ مَا تَقَعُ الْمَصَائِبُ،

وَالْقَحْطُ، وَمَنْعُ الْغَيْثِ، وَتَسَلُّطُ

تَرَكَ الطَّاعَاتِ، وَارْتَكَبِ

المُحَرَّمَاتِ. وَقَالَ تَعَالَى: ؟ إِنْ اللَّهُ

لَا يَغْيِرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا

بأنفسهم؟ [الرَّعْدُ: 11]. وَقَالَ:

؟ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مَغْيِرًا نِعْمَةً

أَنعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا

بأنفسهم؟ [الأنفال: 35]. أَخْبَرَ

اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُغْيِرُ نِعْمَتَهُ الَّتِي

أَنعَمَ بِهَا عَلَى قَوْمٍ مِنْ عَافِيَةِ وَنِعْمَةٍ

وَأَمْنٍ وَعِزَّةٍ وَرِخَاءٍ وَهَنَاءٍ، وَلَا

يَسْلُبُهُمْ إِيَّاهَا إِلَّا إِذَا بَدَّلُوا أَحْوَالَهُمْ

الْجَمِيلَةَ بِأَحْوَالٍ قَبِيحَةٍ، حَتَّى

بِأَنْفُسِهِمْ، فَيُغَيِّرُوا طَاعَةَ اللَّهِ
بِمَعْصِيَتِهِ، وَشُكْرَهُ بِكُفْرِهِ، وَأَسْبَابَ
رِضَاهُ بِأَسْبَابِ سَخَطِهِ، فَإِذَا غَيَّرُوا
غَيْرَ عَلَيْهِمْ، جَزَاءً وَفَاقًا، وَمَا رَبُّكَ
بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ.

«وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَأَمْثَالُهَا فِي

الْقُرْآنِ يَجِبُ الْإِعْتِبَارُ بِهَا، وَأَنَّ

الْإِنْسَانَ لَا يَتَسَبَّبُ فِي تَغْيِيرِ نِعْمَةٍ

اللَّهِ عَنْهُ بِتَغْيِيرِهِ مَا فِي نَفْسِهِ، بَلْ

يَدُومُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ؛ لِأَنَّهُ

إِذَا تَنَكَّرَ لِرَبِّهِ قَدْ يُغَيِّرُ نِعْمَتَهُ عَنْهُ،

وَيَنْقُلُهُ مِنَ النِّعْمَةِ إِلَى النِّقْمَةِ، وَمِنْ

الْعَجَبُ مِمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا بِهِ مِنْ
النَّعْمِ مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ لَا يَسْتَحِي مِنْ
الِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى ارْتِكَابِ مَا
نَهَاهُ!

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:
أَنَا لَكَ رِزْقُهُ لِتَقُومَ فِيهِ
بِطَاعَتِهِ وَتَشْكُرَ بَعْضَ حَقِّهِ

(1) ... «العذب النمير» (5/5)
122 - 123).

فَلَمْ تَشْكُرْ لِنِعْمَتِهِ وَلَكِنْ
قَوِيَتْ عَلَى مَعَاصِيهِ بِرِزْقِهِ

بِالشُّكْرِ، وَإِلَّا ذَهَبَتْ. وَالْمُسْتَعِينُ
بِالنِّعَمِ عَلَى الْمَعَاصِي مُسْتَوْجِبُ
السَّلْبِ. وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَلَى
نِعْمِهِ، فَقَدْ اسْتَدْعَى زَوَالَهَا.

«فَمَا حُفِظَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ بِشَيْءٍ قَطُّ

مِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا حَصَلَتْ فِيهَا

الزِّيَادَةُ بِمِثْلِ شُكْرِهِ، وَلَا زَالَتْ عَنْ

العَبْدِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ لِرَبِّهِ، فَإِنَّهَا نَارُ

النِّعَمِ الَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا، كَمَا تَعْمَلُ

النَّارُ فِي الْحَطْبِ الْيَابِسِ» (1).

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا

فَإِنَّ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمَ

فَشَكَرُ الْإِلَهِ يُزِيلُ النَّقْمَ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ فَضْلِ الشُّكْرِ إِلَّا

أَنَّ النَّعْمَ بِهِ مَوْصُولَةٌ، وَالْمَزِيدَ لَهَا

مُرْتَبِطٌ بِهِ؛ لَكَانَ كَافِيًا، فَهُوَ حَافِظٌ

لِلْمَوْجُودِ مِنَ النَّعْمِ، جَالِبٌ

لِلْمَفْقُودِ مِنْهَا بِالْمَزِيدِ. فَهُوَ قَيْدٌ

لِلْمَوْجُودِ وَصَيْدٌ لِلْمَفْقُودِ، يَعْنِي:

تُقَيِّدُ بِهِ النَّعْمُ الْحَاضِرَةَ،

وَتُسْتَجَلَبُ بِهِ النَّعْمُ الْمَرْجُوءَةُ. فَإِنَّ

النَّعْمَ إِذَا شُكِرَتْ دَرَّتْ وَتَزَايَدَتْ

وَقَرَّتْ، وَإِذَا كُفِرَتْ تَنَاقَصَتْ

وَأَنْمَحَقَّتْ وَفَرَّتْ، قَالَ سُبْحَانَهُ

شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن
عذابي لشديد؟ [إبراهيم: 7] ،
نِعْمَةٌ إِلَى نِعْمَةٍ تَفَضُّلاً مِنَ الْكَرِيمِ
الْمَنَّانِ.

فَالشُّكْرُ جَلَابٌ لِلنَّعْمِ، دَافِعٌ
لِلنَّقْمِ، وَمُوجِبٌ الْمَزِيدِ.
فَلَنْ يَنْقَطِعَ الْمَزِيدُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى،
حَتَّى يَنْقَطِعَ الشُّكْرُ مِنَ الْعَبْدِ.

(1) ... «بدائع الفوائد»

(712/2).

ارْتِكَابَهَا سَبَبٌ لِرِزْوَالِ النِّعَمِ،
وَلِحُلُولِ المَصَائِبِ وَالنِّقَمِ،
وَعَلَيْكُمْ بِالْإِجْتِهَادِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ
تَعَالَى، فَإِنَّ َّ الطَّاعَةَ سَبَبٌ
لِحُصُولِ البَرَكَاتِ، وَتَفْرِيجِ
الْكُرْبَاتِ، وَرِفْعَةِ الدَّرَجَاتِ، وَدَفْعِ
النِّقَمَاتِ، وَإِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ،
وَإِعْطَاءِ الطَّلَبَاتِ، وَقَضَاءِ
الْحَاجَاتِ، فَمَا اسْتُجِلِبَتْ نِعْمَةٌ،
وَلَا اسْتُدْفِعَتْ نِقْمَةٌ، بِمِثْلِ طَاعَةِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُودُ بِكَ مِنْ زَوَالِ

نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخِطِكَ.

الخَامِسُ عَشَرَ: وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ

وَالْمَعَاصِي: أَنَّهَا تُحْدِثُ فِي

الْأَرْضِ أَنْوَاعًا مِنَ الْفَسَادِ فِي

الْمِيَاهِ وَالْهَوَاءِ، وَالزُّرُوعِ وَالشَّمَارِ

وَالْمَسَاكِينِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ؟ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي

النَّاسِ لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ؟ [الرُّومُ: 41]،

وَالْفَسَادُ: الْمَعَاصِي وَآثَارُهَا فِي

الْأَرْضِ.

العَالَمِ الْيَوْمَ: مِنَ الزَّلَازِلِ
وَالْفَيْضَانَاتِ، وَالْأَعَاصِيرِ الْمُدْمِرَةِ
الَّتِي تَجْتَاخُ الْأُلُوفَ مِنَ السُّكَّانِ،
وَتُهْلِكُ الْمَبَالِغَ الطَّائِلَةَ مِنَ
الْأَمْوَالِ، وَتُدْمِرُ الْكَثِيرَ وَالْكَثِيرَ مِنَ
الْمَسَاكِينِ. وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ فِي
الثَّمَارِ: مَا يَظْهَرُ فِيهَا مِنَ الْآفَاتِ
الَّتِي تَقْضِي عَلَيْهَا، أَوْ تُنْقِصُ
مَحَاصِلَهَا» (1).

(1) ... «مختارات من الخطب

الفوزان .

وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ كَثْرَةَ حُدُوثِ الْآفَاتِ

فِي الزُّرُوعِ وَالشُّمَارِ، آفَاتٌ

مُتَلَاذِمَاتٌ، آخِذٌ بَعْضُهَا بِرِقَابِ

بَعْضٍ، يُتْبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَكُلَّمَا

أَحْدَثَ النَّاسُ ظُلْمًا وَشَرًّا وَفُجُورًا

وَإِعْرَاضًا - عَمَّا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِم

وَتَعَبَّدَهُمْ بِهِ -، أَحْدَثَ لَهُمْ رَبُّهُمْ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْآفَاتِ وَالْعِلَلِ:

فِي أَغْدِيَّتِهِمْ وَأَهْوِيَّتِهِمْ، وَفَوَاكِهِمْ

وَمِيَاهِهِمْ، وَأَبْدَانِهِمْ وَخُلُقِهِمْ

وَصُورِهِمْ، وَتَتَابَعِ الْأَمْرَاضِ

لِلنَّاسِ لِمَا ارْتَكَبُوهُ: مِنْ خَبَائِثٍ
وَسَيِّئَاتٍ، وَمَظَالِمٍ، وَمُحَرَّمَاتٍ،
وَبِدَعٍ، وَنَشْرِ الرَّذِيلَةِ، وَأَكْلِ
الْحَرَامِ، وَعَمَلِ الزَّنَا وَالْخَبَائِثِ،
وَتَرْوِجِ الْفَسَادِ، وَرَفْضِ أَوْامِرِ اللَّهِ
جَلَّ جَلَالُهُ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالَّذِينَ
وَأَهْلِهِ. ؟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ؟ عَنْ
أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَثَّرَتْ لَهُمْ مِنْ
الْفَسَادِ مَا أَثَّرَتْ. فَتَصْلُحُ
أَحْوَالُهُمْ، وَيَسْتَقِيمُ أَمْرُهُمْ.
فَسُبْحَانَ مَنْ أَنْعَمَ بِبَلَائِهِ، وَتَفَضَّلَ
بِعُقُوبَتِهِ، وَإِلَّا فَلَوْ أذَاقَهُمْ جَمِيعَ مَا

دَابَّةٌ.

السَّادِسُ عَشَرَ: زَوَالُ الْأَمْنِ

وَالِاطْمِئْنَانِ عَنِ الْأَفْرَادِ

وَالْمُجْتَمَعَاتِ:؟ وَضَرْبُ اللَّهِ مِثْلًا

قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مَطْمِئِنَةً يَأْتِيهَا

رِزْقُهَا رِغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ

بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ

وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ؟

[النحل: 112].

هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِكُلِّ قَرْيَةٍ أَوْ

بَلَدَةٍ، كَانَتْ الْخَيْرَاتُ تَأْتِيهَا مِنْ

جَمِيعِ الْأَمَاكِينِ: فِي رِغْدَةٍ مِنْ

لَمَّا تَنَكَّرَتْ لِنِعْمِ اللَّهِ وَآلَائِهِ،
وَخَالَفَتْ أَمْرَهُ وَاقْتَرَفَتِ الْمَعَاصِي،
فَحَلَّ بِهَا مِنَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ: مَا
اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ، وَهَذَا مُشَاهِدٌ فِي كُلِّ
مَكَانٍ وَفِي كُلِّ زَمَانٍ، وَمِنْهَا زَمَنُنَا
هَذَا: مَا حَلَّ وَيَحِلُّ بِبُلْدَانٍ كَثِيرَةٍ،
وَالَّتِي حَصَلَ لَهَا مِنَ الْعِصْيَانِ
وَالطُّغْيَانِ مَا حَصَلَ، فَحَلَّ بِدَارِهِمْ
مَا حَلَّ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ
؟ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يُظْلِمُونَ؟ [العنكبوت]:

وَسَطَوْتَهُ، فَإِنَّ أَخْذَهُ لِمَنْ ضَيَّعَ أَمْرَهُ
ثَقِيلٌ، وَعَذَابُهُ الدُّنْيَوِيُّ وَالْآخِرِيُّ
لِمَنْ عَصَاهُ وَبَيَّلَهُ، فَإِنَّ الْخَلْقَ أَهْوَنُ
شَيْءٍ عَلَى اللَّهِ، إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ.

وَقَدْ فَصَّلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، مِمَّا أَوْقَعَ
لِمَنْ ضَيَّعَ أَمْرَهُ: مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِأُولِي
الِإِعْتِبَارِ، وَتَبَصُّرَةٌ لِذَوِي الْأَبْصَارِ.

السَّابِعُ عَشَرَ: أَنَّهَا تُوجِبُ الْقَطِيعَةَ
بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى،
وَإِذَا وَقَعَتِ الْقَطِيعَةُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ
أَسْبَابُ الْخَيْرِ، وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ
الشَّرِّ، فَأَيُّ فَلَاحٍ وَأَيُّ رَخَاءٍ، وَأَيُّ

الْخَيْرِ، وَقَطَعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ وِلِيِّهِ
وَمَوْلَاهُ؟! الَّذِي لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ
طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ،
وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَوَصَلَ
مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَى عَدُوِّ لَهُ:
فَتَوَلَّاهُ عَدُوَّهُ، وَتَخَلَّى عَنْهُ وَوَلِيَّهُ؟!
فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا فِي هَذَا
الْإِنْقِطَاعِ وَالِاتِّصَالِ: مِنْ أَنْوَاعِ
الْآلَامِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.
وَالْعَجَبُ أَنَّ الْعَبْدَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ
لَهُ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَيْهِ،
بَلْ هُوَ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ عَلَى مَدَى

بَاطِنًا وَظَاهِرًا، فَاقْتَهُ تَامَةً إِلَيْهِ، وَمَعَ
ذَلِكَ فَهُوَ مُتَخَلِّفٌ عَنْهُ، مُعْرِضٌ
عَنْهُ، وَفِيمَا يُبْعِدُهُ عَنْهُ رَاغِبٌ.

يَتَبَغَّضُ إِلَيْهِ بِمَعْصِيَتِهِ، مَعَ شِدَّةِ
الضَّرُورَةِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، هَذَا
وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَوْقِفُهُ!!

الثَّامِنُ عَشَرَ: وَمِنْ عُقُوبَاتِ

الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ: أَنَّهَا تُؤَثِّرُ فِي

الْقُلُوبِ، كَتَأْثِيرِ الْأَمْرَاضِ فِي

الْأَبْدَانِ، كَالْحُمَّى وَالْأَوْجَاعِ، بَلِ

الدُّنُوبُ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَدَاوُهَا،

بِمَنْزِلَةِ الْحَطَبِ الَّذِي يُمِدُّ النَّارَ

الْقُلُوبِ إِلَّا بِتَرْكِ الذُّنُوبِ. وَقَدْ

أَجْمَعَ السَّائِرُونَ إِلَى اللَّهِ أَنَّ

الْقُلُوبَ لَا تُعْطَى مِنْهَا حَتَّى تَصِلَ

إِلَى مَوْلَاهَا، وَلَا تَصِلُ إِلَى مَوْلَاهَا

حَتَّى تَكُونَ صَاحِحَةً سَلِيمَةً، وَلَا

تَكُونُ صَاحِحَةً سَلِيمَةً، إِلَّا

بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، وَهَوَاهَا: مَرَضُهَا،

وَشِفَاؤُهَا: مُخَالَفَتُهُ. وَمَتَى

اسْتَحْكَمْتَ قَتَلْتَ، وَلَا بُدَّ فِيهَا

كَطَعَامٍ لَدِيدٍ شَهِيٍّ لَكِنَّهُ مَسْمُومٌ،

إِذَا تَنَاوَلَهُ الْآكِلُ لَدَّ لَهُ أَكْلُهُ وَطَابَ

لَهُ مَسَاغُهُ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ يَفْعَلُ بِهِ مَا

وَفِيهِ الْهَلَاكُ. فَهَكَذَا الْمَعَاصِي
وَالذُّنُوبُ، وَلَا بُدَّ. فَالذُّنُوبُ
جِرَاحَاتٌ، وَرُبَّ جَرْحٍ وَقَعَ فِي
مَقْتَلٍ.

وَلَا تَقْرَبِ الْأَمْرَ الْحَرَامَ فَإِنَّمَا ...
... حَلَاوَتُهُ تَفْنَى وَيَبْقَى مَرِيرُهَا (1)

(1) ... «روضة المحبين» (ص
440).

وَانظُرُوا بِعَيْنِ التَّفَكُّرِ وَالِإِعْتِبَارِ: لَوْ
أَنَّ طَبِيبًا مُشْرِكًا، عَفَاكَ عَنْ تَنَاوُلِ
الْفَاكِهَةِ، لِأَجْلِ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ

أَنْ لَا تَتَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْفَاكِهَةِ مَا
دُمْتَ فِي مَرَضِكَ، فَتَلْجَأُ إِلَى
الْحَمِيَةِ، فَمَا بِأَلْكَ لَا تَتْرُكُ مَا
نَهَاكَ عَنْهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَصْدَقُ
الْقَائِلِينَ؟! لِأَجْلِ مَرَضِ الْقَلْبِ:
الَّذِي إِذَا لَمْ تُشْفَ مِنْهُ، فَأَنْتَ مِنَ
الْهَالِكِينَ.

وَلِلَّاهِ دَرُّ الْقَائِلِ:

جِسْمُكَ بِالْحَمِيَةِ حَصْنَتُهُ

مَخَافَةٌ مِنْ أَلَمِ طَارِي

وَكَانَ أَوْلَى بِكَ أَنْ تَحْتَمِيَ

مِنَ الْمَعَاصِي خَشْيَةَ النَّارِ

وَكُلُّهَا مَعَاطِبُ وَمَهَالِكُ، وَآفَاتٌ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَا تَحْتَمِي مِنْهَا؟!
فِيَا مَنْ خَلَطَ فِي مَرَضِهِ وَمَا
اِحْتَمَى، وَلَا صَبَرَ عَلَى مَرَارَةِ
الدَّوَاءِ! أَلَا تَنْكِرُ قُرْبَ الْهَلَاكِ؟!
فَالدَّاءُ مُتْرَامٌ إِلَى الْفَسَادِ. فَإِنَّمَا
يَنْتَفِعُ الْمَرِيضُ بِشُرْبِ الدَّوَاءِ، بَعْدَ
الْحِمِيَةِ مِنْ أَسْبَابِ الدَّاءِ.
فَمَنْ امْتَثَلَ الْأَوَامِرَ، وَاسْتَعْمَلَ
الْحِمِيَةَ بِاجْتِنَابِ النَّوَاهِي،
وَاسْتَفْرَغَ التَّخْلِيطَ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ،
لَمْ يَدْعُ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا، وَلَا مِنَ الشَّرِّ

«وَلَوْ تَفَطَّنَ الْعَاقِلُ اللَّيْبُ لِهَذَا
حَقَّ التَّفَطُّنِ، لِأَعْطَاهُ حَقَّهُ مِنْ
الْحَذَرِ وَالْجِدِّ فِي الْهَرَبِ» (1).

(1) ... «بدائع الفوائد»
(712/2).

التَّاسِعُ عَشَرَ: أَنَّ الْعَاصِيَ دَائِمًا فِي
أَسْرِ شَيْطَانِهِ، وَسِجْنِ شَهَوَاتِهِ،
وَقُيُودِ هَوَاهُ؛ فَهُوَ أَسِيرٌ مَسْجُونٌ
مُقَيَّدٌ، وَلَا أَسِيرٌ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ
أَسِيرٍ أَسْرَهُ أَعْدَى عَدُوِّ لَهُ، وَلَا
سِجْنٌ أَضْيَقُ مِنْ سِجْنِ الْهَوَى، وَلَا

وَالْمَحْبُوسُ مَنْ حَبَسَ قَلْبَهُ عَنِ
رَبِّهِ، وَالْمَأْسُورُ مَنْ أَسْرَهُ هَوَاهُ.

فَكَيْفَ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ وَالِدَّارِ
الْآخِرَةِ: قَلْبٌ مَأْسُورٌ مَسْجُونٌ
مُقَيَّدٌ؟! وَكَيْفَ يَخْطُو خُطْوَةً

وَاحِدَةً؟!

العِشْرُونَ: ظُلْمَةٌ فِي الْقَلْبِ.

«فَالْقَبَائِحُ تُسَوِّدُ الْقَلْبَ، وَتُطْفِئُ

نُورَهُ» (1). وَ«إِذَا أَظْلَمَ الْقَلْبُ،

أَقْبَلَتْ سَحَابُ الْبَلَاءِ وَالشَّرِّ عَلَيْهِ

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ» (2)، فَلَا يَجِدُ لَذَّةً

لِطَاعَةٍ وَلَا حَلَاوَةً. فَإِنَّ الطَّاعَةَ نُورٌ،

الظُّلْمَةُ حَتَّى تَظْهَرَ فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ
تَقْوَى حَتَّى تَعْلُوَ الْوَجْهَ، وَتَصِيرَ
سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ
أَحَدٍ. فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ الْمَوْتِ،

ظَهَرَتْ فِي الْبَرْزَخِ، فَامْتَلَأَ الْقَبْرُ
ظُلْمَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ

مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ

عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي

عَلَيْهِمْ» (3)؛ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْمَعَادِ:

وَحُشِرَ الْعِبَادُ، وَعَلَتِ الظُّلْمَةُ

الْوُجُوهَ عُلُوقًا ظَاهِرًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ،

الْحُمَمَةُ (أَي: الْفَحْمَةُ).

(1) ... «تهذيب المدارج»

(465 / 1).

(2) ... «الجواب الكافي» (ص

260)، بتصرف يسير.

(3) ... رواه مسلم (956).

فَتَّابِعُ الذُّنُوبِ عَظِيمُ التَّأثيرِ فِي
سَوَادِ الْقَلْبِ، وَهُوَ كَتَّابِعِ قَطْرَاتِ
الْمَاءِ عَلَى الْحَجَرِ، فَإِنَّهُ يُحْدِثُ
فِيهِ حُفْرَةً لَا مَحَالَةَ، مَعَ لِينِ الْمَاءِ
وَصَلَابَةِ الْحَجَرِ.

عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ:

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ،

وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ

خَطَايَا بَنِي آدَمَ» (1). لِتَأْثِيرِ شُؤْمِ

الْمَعْصِيَةِ فِي الْحَجَرِ، وَكَذَلِكَ تَأْثِيرُ

شُؤْمِ الذُّنُوبِ فِي الْقُلُوبِ.

وَمَنْ أَرَادَ تَنْوِيرَ الْقَلْبِ، فَلْيَلْزِمِ

التَّوْبَةَ إِلَى الرَّبِّ. فَمَا اسْتَنَارَتْ

الْقُلُوبُ، بِمِثْلِ تَرْكِ الْمَعَاصِي

وَالذُّنُوبِ.

وصححه الألباني رحمه الله في

«صحيح سنن الترمذي»

(452/1).

الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ: وَمِنْ آثَارِ

الدُّنُوبِ: مَا قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُمَا: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «يَا

مَعشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا

ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ

تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي

قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا

فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ

مَضُوءًا؛ وَلَمْ يَنْقُضُوا الْمِكْيَالَ
وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ
الْمَوْوَنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ؛
وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنَعُوا
الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ
لَمْ يُمَطَّرُوا؛ وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ
وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا
فِي أَيْدِيهِمْ؛ وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أُمَّتُهُمْ
بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ
اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمِ
بَيْنَهُمْ» (1).

صلى الله عليه وسلم من هذه
العُقوباتِ في هذا الحديثِ عياناً،
لأنَّ مُوجِبَاتِهَا قد وَقَعَتْ، فَإِنَّا لِلَّهِ
وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فَظُهُورُ الْفَاحِشَةِ يُوجِبُ الْأُوبَةَ
وَالْأَمْرَاضَ الْعَامَّةَ، وَالْأَوْجَاعَ
وَالْأَمْرَاضَ الْفَتَّاكَةَ، وَالْآفَاتِ
الْقَاتِلَةَ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً:
كَمَرَضِ نَقْصِ الْمَنَاعَةِ الْمُكْتَسَبَةِ
«الإيدز»، وَالزُّهُرِيِّ، وَالسَّرَطَانَ،
وَالكُؤَلِيرَا، وَالسَّلَّ، وَالسَّكَّتَةَ
الْقَلْبِيَّةَ.

بِمِثْلِهِ مِنْ قَبْلُ.

(1) ... رواه ابن ماجه (4019)،

وحسنه الألباني رحمه الله في

«صحيح سنن ابن ماجه»

(3262).

وَفِي الْجَدْبِ، وَشِدَّةِ الْمَوْنَةِ وَجَوْرِ

السُّلْطَانِ، مِنْ نَقْصِ الْأَمْوَالِ مَا

يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ، جَزَاءً لِبَخْسِهِمْ

النَّاسِ حُقُوقَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، بِنَقْصِ

الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، جَزَاءً وَفَاقًا، وَمَا

رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ.

الْوَعِيدِ، وَالْإِخْبَارِ بِمَا أَحَلَّ اللَّهُ
بِفَاعِلِيهِ، مِنْ سَالِفِ الْأُمَمِ، مَا هُوَ
مَعْلُومٌ؛ وَإِنَّمَا حُرِّمَ ذَلِكَ وَغُلِظَ
تَحْرِيمُهُ، لِأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ،
وَأَكْلِ الْمَالِ.

وَمَنْعُ الزَّكَاةِ لَهَا خُصُوصِيَّةٌ فِي مَنْعِ
الْقَطْرِ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِنَّ مَنْعَهَا مِنْ
أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، لِأَنَّ الزَّكَاةَ أَحَدُ
أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ قَرِينَةُ الصَّلَاةِ
فِي كِتَابِ اللَّهِ.

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ
الْمَفْرُوضَةَ، مِنَ الْأَمْوَالِ الْخَفِيَّةِ: إِمَّا

بِبَعْضِ تَفَاصِيلِ الْوَاجِبِ مِنْ
الشُّرُوطِ، كَالنِّصَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.
وَقَوْلُهُ: «وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا»
يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يُنَزِّلُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
الْمَطَرِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، رَحْمَةً
لِلْبَهَائِمِ الَّتِي لَا جُرْمَ لَهَا.
وَأَمَّا تَسْلِيطُ الْأَعْدَاءِ: فَحَدَّثَ وَلَا
حَرَاجَ.

وَالْتِنَازُعُ وَالشَّقَاقُ وَالْبَغْضَاءُ،
وَالْبَأْسُ الشَّدِيدُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ:
أَصْبَحَ هُوَ الْقَاعِدَةَ فِي التَّعَامُلِ.

تَرَكَ الْعَمَلِ بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَهُوَ
دِينُهُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ

وَالسُّنَّةُ، فَإِنَّ هَذِهِ الْعُقُوبَةُ، وَهِيَ:

إِغْرَاءُ اللَّهِ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ،

وَجَعْلُهُ تَعَالَى بِأَسْهُمَ بَيْنَهُمْ، بِهَا

انْتِلَالُ عَرْشِ الدِّيَانَاتِ، وَأَنْحِلَالُ

نِظَامِ الْوَلَايَاتِ، وَتَفَرُّقُ الْجَمَاعَاتِ،

وَأَنْتِهَاكُ الْمُحَرَّمَاتِ، وَتَسْلِيْطُ أَهْلِ

الْكُفْرِ وَالضَّلَالَاتِ، قَالَ تَعَالَى:

؟ وَمِنَ الدِّينِ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا

مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حِظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ

فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى

كانوا يصنعون؟ [المائدة: 14].
وَمِنَ الْمُؤَسِّفِ جِدًّا؛ أَنْ يَكُونَ كُلُّ
مَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ مُتَحَقِّقًا فِيْنَا
تَمَامًا، ظَاهِرًا فِي مُجْتَمَعِنَا بِأَجَلِي
الْمَظَاهِرِ. فَلَعَلَّ الْمُسْلِمِينَ
يَتَفَطَّنُونَ لِمَا نَزَلَ بِهِمْ، فَيَرْعَوُوا
عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ عَذَابِهِمْ
وَذُلِّهِمْ وَخِزْيِهِمْ، وَيَتَأَدَّبُوا وَيَرْجِعُوا
إِلَى دِينِهِمُ الْحَقِّ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ،
حَتَّى يَرْفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ عِقَابَهُ وَخِزْيَهُ.

الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ: تَدَاعِي الْأُمَّمِ

عَلَيْنَا: عَنِ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وسلم: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى
عَلَيْكُمْ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى
قَصْعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةِ
نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ
كَثِيرٌ، وَلَا كِنِّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ؛
وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ
الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِفَنَّ اللَّهُ فِي
قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ:

«حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» (1).

قَدْ تَجَلَّى هَذَا الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ
الشَّرِيفُ - بِأَقْوَى مَظَاهِرِهِ وَأَجَلَى

ضَرَبَتِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَفَرَّ قَتٌ

كَلِمَتَهُمْ، وَأَوْهَنْتَ عَزْمَهُمْ، وَشَتَّتْ

صُفُوفَهُمْ.

فَقَدْ تَدَاعَتْ عَلَيْنَا الْأُمَمُ: بِأَنْ

يَدْعُو بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِمُقَاتَلَتِكُمْ

وَكَسْرِ شَوْكَتِكُمْ، وَسَلْبِ مَا

مَلَكَتُمُوهُ مِنَ الدِّيَارِ وَالْأَمْوَالِ.

كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا

الَّتِي يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا: بِلَا مَانِعٍ وَلَا

مُنَازِعٍ، فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا وَصَفْوًا؛

كَذَلِكَ يَأْخُذُونَ مَا فِي أَيْدِيكُمْ: بِلَا

تَعَبٍ يَنَالُهُمْ، أَوْ ضَرَرٍ يَلْحَقُهُمْ، أَوْ

وَلَيْسَ ذَلِكَ التَّدَاعِي لِأَجْلِ قِلَّةِ:
نَحْنُ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ، بَلْ نَحْنُ أَكْثَرُ
عَدَدًا.

(1) ... رواه أبو داود (7924)،
وصححه الألباني رحمه الله في
«صحيح سنن أبي داود»
(25/3).

«وَلَا كِنِّكُمْ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ»: مَا
يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ زَبَدٍ وَوَسَخٍ،
شَبَّهَهُمْ بِهِ لِقِلَّةِ شَجَاعَتِهِمْ وَدَنَاءَةِ
قَدْرِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: فَأَخَذْتَهُمْ

فبعداً للقوم الظالمين؟ [المؤمنون]:
[41].

لِمَاذَا تَدَاعَتْ عَلَيْنَا الْأُمَمُ؟ وَلِمَاذَا
لَا يُلْقُونَ لَنَا وَزَنًا وَلَا قِيمَةً؟! لِأَنَّهُ
اسْتَوَلَى عَلَى قُلُوبِنَا: حُبُّ الدُّنْيَا،
وَكِرَاهِيَةُ الْمَوْتِ.

أَيُّهَا الْأَحِبَّةُ: لِمَاذَا لَا نُصَلِّي الْفَجْرَ
فِي الْمَسْجِدِ؟ رَكْنَا إِلَى الدُّنْيَا،
وَخَلَدْنَا إِلَى النَّوْمِ وَالْكَسَلِ. وَمَنْ
لَا زَمَ الْمَنَامَ، لَمْ يَرَ إِلَّا الْأَحْلَامَ؛
وَمَنْ لَا زَمَ الرَّقَادَ، فَاتَهُ الْمُرَادُ.

الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ: وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا:

نَفْسَهُ أَهْمَلَهَا وَأَفْسَدَهَا وَأَهْلَكَهَا.

وَهَذَا أَهْلَكَ الْهَالِكِ، الَّذِي لَا

يُرْجَى مَعَهُ نَجَاةٌ. قَالَ اللَّهُ الْعَظِيمُ:

؟وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ

فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُم

الْفَاسِقُونَ؟ [الحشر: 19]، ؟نَسُوا

اللَّهُ فَنَسِيَهُمْ؟ [التوبة: 67].

فَمَنْ نَسِيَ رَبَّهُ، عَاقَبَهُ عُقُوبَتَيْنِ؛

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُ،

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ أَنَسَاهُ نَفْسَهُ.

وَنَسِيَانُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ: هُوَ إِهْمَالُهُ

وَتَرْكُهُ، وَتَخَلِّيهِ عَنْهُ وَإِضَاعَتُهُ، وَهُوَ

وَمَعَادِهِ.

وَأَمَّا إِنْسَاؤُهُ نَفْسَهُ: فَهُوَ إِعْرَاضُهُ
عَنْ مَصَالِحِهَا وَأَسْبَابِ سَعَادَتِهَا
وَفَلَاحِهَا وَصَلَاحِهَا، كَمَنْ لَهُ زَرْعٌ
أَوْ بُسْتَانٌ أَوْ مَاشِيَةٌ أَوْ مَالٌ أَوْ غَيْرُ
ذَلِكَ، مِمَّا صَلَاحُهُ وَفَلَاحُهُ
بِتَعَاهُدِهِ وَالْقِيَامِ عَلَيْهِ، فَأَهْمَلَهُ
وَنَسِيَهُ، وَاشْتَغَلَ عَنْهُ بِغَيْرِهِ، وَضَيَّعَ
مَصَالِحَهُ؛ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ وَلَا بُدَّ.
وَأَيْضًا فَيُنْسِيهِ عُيُوبَ نَفْسِهِ
وَنَقْصَهَا وَآفَاتِهَا، فَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ
إِزَالَتُهَا وَإِصْلَاحُهَا.

وَأَلَامَهَا، فَلَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ
مُدَاوَاتُهَا، وَلَا السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ
عِلَلِهَا وَأَمْرَاضِهَا الَّتِي تَوُولُ بِهِ إِلَى
الْفَسَادِ وَالْهَلَاكِ، فَهُوَ مَرِيضٌ
مُتَخَنٌ بِالْمَرَضِ، وَمَرَضُهُ مُتْرَامٌ بِهِ
إِلَى التَّلَفِ، وَلَا يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ، وَلَا
يَخْطُرُ بِبَالِهِ مُدَاوَاتُهُ: وَهَذَا مِنْ
أَعْظَمِ الْعُقُوبَةِ؛ فَإِنَّ عُقُوبَةَ أَعْظَمِ
مِنْ عُقُوبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ
وَضَيَّعَهَا، وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَاءَهَا
وَدَوَاءَهَا، وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا
وَصَلَاحِهَا وَفَلَاحِهَا، وَحَيَاتِهَا

وَمَنْ تَأْمَلَ هَذَا الْمَوْضِعَ، تَبَيَّنَ لَهُ
أَنَّ أَكْثَرَ هَذَا الْخَلْقِ قَدْ نَسُوا
أَنْفُسَهُمْ حَقِيقَةً، وَضَيَّعُوهَا
وَأَضَاعُوا حَظَّهَا مِنَ اللَّهِ. نَسُوا
حَظَّهُمْ مِنَ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ،
وَاشْتَغَلُوا بِأَسْبَابِ التِّجَارَةِ
الْخَاسِرَةِ.

* * *

الخاتمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ عَلَى خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْمُرْسَلِينَ.

الْأَبْدَانِ فِيْهِلِكُهَا، وَفِي الْبُلْدَانِ
فِيْفْسِدُهَا، أَضْرَارُهَا عَظِيْمَةٌ،
وَعَوَاقِبُهَا وَخِيْمَةٌ.

فَلَا شَيْءَ أَفْسَدُ لِلدِّينِ، وَأَشَدُّ

تَقْوِيضًا لِبُنْيَانِهِ مِنْهَا، فَهِيَ تَفْتِكُ

بِهِ فَتَكَ الذُّبِّ بِالْغَنَمِ، وَتَنْخَرُ فِيهِ

نَخْرَ السُّوسِ فِي الْحَبِّ، وَتَسْرِي

فِي كِيَانِهِ سَرِيَانَ السَّرَطَانِ فِي الدَّمِّ،

أَوْ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ.

هَذِهِ آثَارُهَا فِي الدُّنْيَا، أَمَّا فِي

الْآخِرَةِ فَيَكْفِي قَوْلُهُ تَعَالَى:

؟وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى؟

وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ: الإِقْبَالُ

عَلَى اللَّهِ، بِالتَّوْبَةِ إِلَى رَبِّنَا تَوْبَةً

نَصُوحًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ؟وتوبوا

إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ؟ [النور: 31].

بِنَدَمٍ خَالِصٍ صَاحِحٍ، وَعَزْمٍ أَكِيدٍ،

وَعَمَلٍ رَشِيدٍ، بِأَنْ نُغَيِّرَ حَيَاتِنَا

الْآثِمَةَ إِلَى الْحَيَاةِ الصَّالِحَةِ فِي زَمَنِ

الإِمْكَانِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: فِي

الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالسِّرِّ وَالْجَهْرِ.

نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّهُ

وَالنِّيَّاتِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الثَّبَاتَ عَلَى
الإِسْلَامِ إِلَى الْمَمَاتِ، وَأَنْ لَا يُزِيغَ
قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا. إِنَّهُ سَمِيعٌ
مُجِيبٌ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
العَالَمِينَ.

* * *

الفهرس

الموضوع ... الصفحة

المُقَدِّمَة ... 5

آثَارُ الذُّنُوبِ عَلَى الأَفْرَادِ

وَالشُّعُوبِ ... 11

ثَانِيًا: حِرْمَانُ الرَّزْقِ ... 13

ثَالِثًا: تَعْسِيرُ الْأُمُورِ ... 16

رَابِعًا: حِرْمَانُ الطَّاعَةِ ... 18

خَامِسًا: الْخَتْمُ عَلَى الْقُلُوبِ ...

20

سَادِسًا: الْخَسْفُ وَالزَّلَازِلُ ... 21

سَابِعًا: الْإِخْتِلَافُ وَالتَّمَرُّقُ ... 24

ثَامِنًا: الْهَزَائِمُ الْعَسْكَرِيَّةُ ... 26

تَاسِعًا: الْمَعَاصِي سَبَبٌ لِهَوَانِ الْعَبْدِ

عَلَى رَبِّهِ ... 30

عَاشِرًا: كَوْنُهَا دَاءً الْأُمَّمِ ... 31

الْحَادِي عَشَرَ: مَحَقُّ بَرَكَةِ الْعُمْرِ

الثَّانِي عَشَرَ: الذُّلُّ وَالْهَوَانُ ...

39

الثَّلَاثُ عَشَرَ: ذَهَابُ الْحَيَاءِ ...

47

الرَّابِعُ عَشَرَ: إِزَالَةُ النَّعْمِ الْحَاضِرَةِ

50 ...

الخَامِسُ عَشَرَ: إِحْدَاثُ الْفَسَادِ

فِي الْمِيَاهِ وَالْهَوَاءِ ... 57

السَّادِسُ عَشَرَ: زَوَالُ الْأَمْنِ

وَالْإِطْمِنَانِ ... 59

السَّابِعُ عَشَرَ: الْقَطِيعَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ

وَبَيْنَ الرَّبِّ ... 61

الْقُلُوبِ ... 62

التَّاسِعُ عَشَرَ: أَسْرُهَا لِصَاحِبِهَا

وَتَقْيِيدُهُ ... 64

العِشْرُونَ: الظُّلْمَةُ فِي الْقَلْبِ ...

65

الحَادِي وَالْعِشْرُونَ: فَشُو الْأَوْجَاعِ

وَتَسَلُّطُ الْأَعْدَاءِ ... 67

الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ: تَدَاعِي الْأُمَمِ

عَلَيْنَا ... 71

الثَّلَاثُ وَالْعِشْرُونَ: إِنْسَاءُ الْعَبْدِ

نَفْسَهُ ... 73

